

من كتاب: مقدمة في العلاج الجمعي " من ذكاء الجماد إلى رحاب المطلق": الفصل الأول: معالم أساسية، وتاريخ (2)



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2020/09/13

السنة الرابعة عشرة - العدد: 4761

د. يهيا ترخاوي - الطب النفسي، مصر

ثانياً: تاريخ التجربة

أما بالنسبة لموضوع البحث وهو "العلاج الجمعي": دراسة اتجاه مصري "فإن له قصة طويلة معي لا أعتقد أن هذا مجال نكرها تفصيلاً - وقد أرجع إليها حين أكتب بنفسي - إذا قدر لي - عن العلاج الجمعي من واقع خبرتي (3) ووجهة نظري، ولكني هنا لا بد أن أسرد تاريخاً قصيراً ألمح إليه الباحث في بضع سطور حين عرج على العلاج الجمعي في مصر. ولعل في هذا التاريخ الموجز ما يفسر أن هذا الاتجاه "مصري"، كما أنه قد يوضح للقارئ كيفية ارتباط علمنا هذا بوجه خاص بنواتنا وتجربتنا وثقافتنا الشخصية.

ويمكن أن أرجع هذه الطريقة العلاجية قيد البحث إلى ثلاث مصادر أساسية:

- 1- خبرة "شخصية" موازية.
- 2- خبرة مهنية طويلة في العلاج النفسي عامةً.
- 3- بعض القراءات في الموضوع.
- 4- أرضية ثقافية خاصة بمجتمعنا بالذات.

لمحة من الخبرة الشخصية:

بدأت التجربة بداية شخصية تماماً حين أردت مع صديق عزيز عليّ جداً أن نرتقى بلقاءاتنا الخاصة من مرحلة "الانتناس وقتل الوقت" (أو ما يسميه إريك بيرن "لعبة الثرثرة") إلى مرحلة المساعدة الجادة لبعضنا البعض.. وكانت لدينا الشجاعة حينذاك أن نلتقط الخيط من بعض معاناتنا ..، وبديهي أنه في مثل هذا الموقف تبدأ المجموعة المسماة مجموعة المواجهة "Encounter group" المجموعة بلا قائد "Leaderless Group"، وكان ذلك في عام 1971، وتصادف أن ذلك كل قد حدث عقب خبرة الحدس العلمي الذي أشرت إليه في كتابي "حيرة طبيب نفسي"، والذي فزعت فيه إلى صديق وزميل (ولم أجده، ثم إلى زوجتي كما ورد في كتابي حيرة طبيب نفسي⁽⁴⁾، بما صاحب ذلك من لهفة ملحة إلى أن أجد من يقبلني ويصبر على الفكرة الجديدة قبل أن يسارع بالحكم عليها أو عليّ!!

التعليق: فبراير 2013)

توقفت فجأة، وحاولت أن أتذكر تلك الفكرة الباكورة وكيف ولدت، وهل يا ترى لها علاقة بالعلاج الجمعي، أو على الأقل بهذه الفقرة التي أسميتها "الخبرة الشخصية"، فلم أستطع أن أحدد أية فكرة كانت بالضبط، فقلت أرجع إلى كتابي التي ذكرت فيه "حيرة طبيب نفسي"، فوجدتها تشغل الفصل الأخير على قصره، وتصورت أن من حق القارئ وحقي أن أعرض هذه العينة الباكورة التي يرجع تاريخها إلى أكثر من أربعين سنة، مع أن علاقتها بالعلاج الجمعي تبدو ضعيفة، لكنني حين أعدت قراءتها، وراجعت ما وصلني من هذا العلاج، وجدت ارتباطاً وثيقاً، خاصة وأنها ظهرت سنة 1971، وهي نفس السنة التي

بدأت التجربة بداية شخصية تماماً حين أردت مع صديق عزيز عليّ جداً أن نرتقى بلقاءاتنا الخاصة من مرحلة "الانتناس وقتل الوقت" (أو ما يسميه إريك بيرن "لعبة الثرثرة") إلى مرحلة المساعدة الجادة لبعضنا البعض

"يا محمد: إما أن نساهم إرادياً في التطور أو نموت، والمسألة تحتاج إلى حوار متصل، ولحظنا لا تحتاج - في نظري - إلى تحليل منطوق، المسألة تحتاج إلى حب جارفة، وصدق، وتفشيف نفسي، وتصوف، وإيمان بالأصل، وبالاستمرار، ويقين بالغد، وبكل ما هو أصيل

هو موجود عبر التاريخ، وهو الذي يجعلنا نفخر بأن ننتهي إلى هذا الجنس من المخلوقات

ليس هناك جديد بمعنى الجديد، وإنما الجديد هو في إعادة تنظيم القديم

لأشك أن هناك حوالى ألفه أو قل مائة - في مجال الطب النفسي فقط - يفكرون فيما أفكر فيه الآن، أنا لأشك أنه إن لم أكتب ما يدور في

وجداني- الشيء الذي يلج على فيه البعض الآن- لأفك أن تحيرى سيكتبه، وربما أفضل

الآن: ماهو موقفنا من المرض النفسي وتقسيماته وعلاجه؟
راجع التقسيم الدولي والأمريكي وغيرهما وتعجب للمرحلة المتواضعة التي تجمّدنا عندها

راجع محاولة فهم المخ بالتفاعلات الكيميائية فقط، وستجد تقاليد العلماء في المعامل تشبه تشنجات فنران التجاربه، وهم يحاولون تعميم ما على الفأر على الإنسان

راجع الموقف الأبلى في تفسير الصدمات الكهربائية بالرغم من اعترافى بأنها... ذات مفعول رائع إذا أحسنّا استخدامها

راجع النظريات السيكوباثولوجية وعدم ارتباطها ببعضها البعض من ناحية وبالوضع العضوى للمخ من ناحية أخرى

راجع أقصى اليمين من المدعين - مثلا- أن الأمراض النفسية ما هى إلا نوع من الصرع... وهم لا يفهمون الصرع ذاته

ثم راجع الصراخ الخائبة بين التحليليين والسلوكيين، ثم راجع علاقة الأمراض ببعضها البعض: الصرع بالشيرزوفرنيا والأخير بجنون والهوس والاكتئاب، ثم راجع التاريخ

أعنى تاريخ الحياة وتناسبها: لا مع المرحلة الفمية والمرحلة الشرجية... ولكن مع الموقف البارنوى والموقف الاكتئابى... الخ

بدأت أمارس فيها العلاج الجمعى بانتظام أسبوعى حتى هذه اللحظة (2020/9/13)، قررت الآن برغم مقاومة شديدة خوفا من الاستطردات التى تتحرف بالمسار أن اثبتها كما جاءت فى هذا الكتاب بالنص دون تغيير حرف واحد، خاصة وأنها تحوى جانباً مهماً من علاقتى بالزميل الصديق الكريم أ.د. محمد شعلان، وهو أحد أهم افراد المجموعة التى أشرت إليها حالا، وسأرجع إليها فى حينها.

ثم قد أعتذر على حشر هذا الاستطرد إن لزم الاعتذار.

وها هى ذى:

.....

فى يوم الإثنين الثانى عشر من أبريل الماضى (1971)، وكنت جالسا مع مريض صديق بعيادتى الخاصة، أستمع إليه ولا أستمع إليه، وجدت أن الأمور المتناقضة جميعا قد ارتبطت ببعضها البعض فجأة، وأن كل الأضداد (أو معظمها) استدارت من موقف المواجهة إلى موقف التماسك والتآلف، وارتبط الانسان الفرد بالإنسان النوع، واستقر الأنا الهارب والأنا الناكص والأنا المنقسم (التعابير من الفكر التحليلى الجديد: العلاقة بالموضوع) فى قاع خلايا المخ، وصعد فرويد إلى أعلى طبقات النفس وأكثرها سطحية، وكأن كل شئ أشرق فجأة... وتقاهمت الكيمياء مع الكهرباء مع التحليل النفسى مع التطور. وتعجبت من كل هذا.. فرحت به، وخفت منه فى نفس الوقت، واتصلت تليفونيا بزميل صديق، فلم أجده.. وانطلقت أشرح أفكارى للصديق المريض أمامي- بلغة قريبة منه ومن مشكلته- وكان للجديد وقع عنيف على... ولكن الصديق المريض قال لى: "ما أنا عارف"، وعجبت، وتذكرت حقيقة قديمة وهى أن الأصدقاء المرضى يعرفون النفس أدق وأصدق من كل النظريات، وذهبت آخر النهار لزميلى الصديق الطبيب المختص ومعى زوجتى... ولم أجده لا هو، ولا زوجته الصديقة المتخصصة فى علم النفس، ولم أستطع الصمت، وأخرجت ورقا من مكتبه وانطلقت طوال أكثر من ساعة أشرح لزوجتى الفكرة وأرسمها على الورق وأربط الأفكار ببعضها البعض.. ولا أعرف إن كانت قد أدركت التفاصيل أم لا.. ولكنها كانت تتابع أفكارى غالبا بقدر من الحب يشجعنى أن أقول ما لا يعينها دون حرج..، وحين حضر زميلى وزوجته توعدنا أن أشرح له الفكرة فيما بعد..، وخلال أيام كنت أعيد القصة عليهما مع زوجتى من أولها لآخرها... وسألته هل هناك جديد؟ فقالوا: "يبدو ذلك..."

وفى ليلة تالية حلمت أنى أكتب خطابا لصديقى "بيير برينتى" فى باريس الذى قال تعليقه عن الشئ الـ "ما" الذى ينبغى أن أهب حياتى له، واستيقظت فى جوف الليل وأخذت أكتب له وأكتب حتى أكملت أكثر من عشر صفحات، وأرسلتها فورا دون أن أحفظ بنسخة، ولم يرد (ولا أدرى حتى الآن إن كان خطابى قد وصل، وخجل أن يسفه رأئى فى الرد، أم أن رجال البريد أحسوا بنقل وزنه فتخففوا من جهد توصيله).

واستمررت بعد ذلك أمارس المهنة، ولكنى وجدت أن الأسماء القديمة تعوق فهمى أكثر وأكثر، وأن الفكرة الجديدة تلح على فى أن أبحث عن أسماء جديدة، وفعلت...، ووجدت أن هذه الفكرة أكثر تقبلا وفهما من التعقيدات الشديدة والأغازال التى كنا نحاول أن نفهم بها الانسان المريض، ووجدت أنه حتى العلاج أخذ طابعا آخر ومراحل أخرى، أصبح أوضح وأبسط وأسرع وأكثر ترابطا.

وطبعا شككت فى كل ذلك، ولم يشك فيه مرضاى ولا زملائى (الصغارمنهم بوجه خاص) وقلت أبدا: هذه صحوة من صحوات الحيرة أردت بها أن أهدئ من حيرتى فترة ما، وأن هذه الفكرة موجودة من قديم وقد انجلت فجأة... هذه هى كل الحكاية... لا بد أنى قرأتها يوما.. أو أنى سأقرأها يوما...

وذهبت أبحث عنها فى كل ما تصل إليه عينى مما قرأت، وذهبت أناقشها مع كل من أثق فى سعة إطلاعهم، ووجدت جزئياتها موجودة فعلا، ولكنها ليست موجودة إطلاقا ككل متكامل...، قال بها "فرويد" عندما تحدث عن غريزة الموت والحياة، (وليس قبل ذلك!) وقال بها يونج وهو يغوص فى اللاشعور الجمعى، وفى حديثه عن تاريخ الانسان النوع وضرورة تحقيق ذاته، وعن "تجربة الرب" وقال بها "إريك اريكسون" وهو يضع الانسان فى تطوره الاجتماعى وكأنه عدة أناس بعضهم فوق بعض، وقال بها ساندور رادو، وإريك فروم، وكارين هورنى وفيربرن وجنترن وهنرى إى وزرادشت ونييتشه وبرجسون

وبرناردشو وكل الناس.

ولم يقلها أحد.

وكننت حين أقرأ بالانجليزية ونادرا بالفرنسية ولا أجد هذه الفكرة، أقول لنفسي لا بد أنها كتبت بالألماني، فهناك الأصالة والتطور وأنا لأعرف الألمانية، إذن فلا جديد، ولكنه بالرغم مني، بدا لي كل شئ جديداً، وبعد شهر طويل حين استقرت الأشياء وأخذت الأسماء الجديدة مواضعها التقريبية، كتبت إلى زميلي وصديقي الدكتور محمد شعلان في الولايات المتحدة الأمريكية خطاباً سيئاً للغاية حاولت أن أقدم له الفكرة ببعض التفاصيل، وبعد أن شرحت فيه وجهة نظري في أن انتشار فرويد لم يكن لأصالته، وإنما لحاجة الناس إلى تبرير توقفهم التطوري- أو تدهورهم- خلال القرن التاسع عشر (5) قلت له:

“يا محمد: إما أن نساهم إرادياً في التطور أو نموت، والمسألة تحتاج إلى حوار متصل، ولكنها لا تحتاج- في نظري- إلى تحليل منظم، المسألة تحتاج إلى حب جارف، وصدق، وتكشف نفسي، وتصوف، وإيمان بالأصل، وبالاتمرار، ويقين بالغد، وبكل ما هو أصيل... وأين هذا كله؟ هو موجود عبر التاريخ، وهو الذي يجعلنا نفخر بأن ننتمي إلى هذا الجنس من المخلوقات.... ليس هناك جديد بمعنى الجديد، وإنما الجديد هو في إعادة تنظيم القديم، أنا لأشك أن هناك حوالي ألف أو قل مائة- في مجال الطب النفسي فقط- يفكرون فيما أفكر فيه الآن، أنا لأشك أني إن لم أكتب ما يدور في وجداني- الشئ الذي يلح على فيه البعض الآن- لأشك أن غيري سيكتبه، وربما أفضل، وحين أرسلت إليك مقالتي عن الصحة النفسية قدمت لها أقترح أن تعتبرها نوعاً من الضلال المنظم Systematized delusion ، فإذا كان الضلال ما هو إلا دفاع ضد الجنون المطبق، فقد أطبق، إلا إذا أردت أن تعتبر أن هذا الجنون في خدمة الذات والتطور.. إذن فهو الخلق..

هل آن الأوان أن أحدثك عن هذا الذي كان؟. فليكن..

الآن: ما هو موقفنا من المرض النفسي وتقسيماته وعلاجه؟

راجع التقسيم الدولي والأمريكي وغيرهما وتعجب للمرحلة المتواضعة التي تجمدنا عندها...، ثم راجع محاولة فهم المخ بالتفاعلات الكيميائية فقط، وستجد تقلصات العلماء في المعامل تشبه تشنجات فئران التجارب، وهم يحاولون تعميم ما على الفأر على الإنسان...، ثم راجع الموقف الأبله في تفسير الصدمات الكهربائية بالرغم من اعترافي بأنها... ذات مفعول رائع إذا أحسنا استخدامها، ثم راجع النظريات السيكيوباتولوجية وعدم ارتباطها ببعضها البعض من ناحية وبالوضع العضوي للمخ من ناحية أخرى، ثم راجع أقصى اليمين من المدعين - مثلاً- أن الأمراض النفسية ما هي إلا نوع من الصرع.... وهم لا يفهمون الصرع ذاته.

ثم راجع الصراع الخائب بين التحليليين والسلوكيين، ثم راجع علاقة الأمراض ببعضها البعض: الصرع بالشيزوفرينيا والأخير بجنون والهوس والاكتئاب، ثم راجع التاريخ... أعني تاريخ الحياة وتناسبها: لا مع المرحلة الفمية والمرحلة الشرجية.... ولكن مع الموقف البارنوي والموقف الاكتابي... ”الخ“ ومضيت في خطابي ألح في حاجتنا إلى جديد يربط كل ذلك ببعضه البعض:

..وأن الفارماكولوجيا (علم العقاقير الطبية) النفسية من ناحية، وتداخل الأمراض الذهانية في بعضها البعض من ناحية أخرى يمكن أن يعمق الفهم ويحل الإشكال...، ثم عرضت فكري عن أن مخ الإنسان ليس مخاً واحداً بل عدة أمخاخ، وأنى أعني بالمخ “تركيباً متكاملًا“ وليس منطقة بذاتها، وأن كل تركيب متكامل له نقطة انبعاث تنظم عمله، وأنه في الأحوال العادية لا يفقد إلا مخ واحد وتكون بقية الأمخاخ كامنة أو مساعدة ، وأن هذا المخ الواحد هو الذي يسيطر بالتنظيم على كل أجزاء الجهاز العصبي في وقت السلامة، وفي الأحوال المرضية (أمراض الكينونة) يعمل أكثر من مخ معاً كيفما اتفق، وأحياناً يعمل المخ القديم متفوقاً، وينتصر على المخ الحديث في الصراع بينهما، وأن العقاقير تعمل بشكل تطوري مرتب على بعض الأمخاخ دون الأخرى، وبذلك يمكن تهدئة المخ القديم اختياريًا دون المساس بدرجة كبيرة بالمخ الحديث، وأن الصدمة الكهربائية إنما تسمح النشاط الكهربائي لكل الأمخاخ ثم تعطى الفرصة للمخ

أن الفارماكولوجيا (علم العقاقير الطبية) النفسية من ناحية، وتداخل الأمراض الذهانية في بعضها البعض من ناحية أخرى يمكن أن يعمق الفهم ويحل الإشكال

عرضت فكري عن أن مخ الإنسان ليس مخاً واحداً بل عدة أمخاخ، وأنى أعني بالمخ “تركيباً متكاملًا“ وليس منطقة بذاتها

أن كل تركيب متكامل له نقطة انبعاث تنظم عمله، وأنه في الأحوال العادية لا يفقد إلا مخ واحد وتكون بقية الأمخاخ كامنة أو مساعدة

أن هذا المخ الواحد هو الذي يسيطر بالتنظيم على كل أجزاء الجهاز العصبي في وقت السلامة، وفي الأحوال المرضية (أمراض الكينونة) يعمل أكثر من مخ معاً كيفما اتفق، وأحياناً يعمل المخ القديم متفوقاً، وينتصر على المخ الحديث في الصراع بينهما

أن العقاقير تعمل بشكل تطوري مرتب على بعض الأمخاخ دون الأخرى، وبذلك يمكن تهدئة المخ القديم اختياريًا دون المساس بدرجة كبيرة بالمخ الحديث

الصدمة الكهربائية إنما تسمح النشاط الكهربائي لكل الأمخاخ ثم تعطى الفرصة للمخ الأقوى أن يلتقط عصا المايسترو ليوجه الفرقة كلما

أن العلاج النفسي هو الحبيب الإنساني الذي يجذب طاقة المريض إلى الخارج إلى

الأقوى أن يلتقط عصا المايسترو ليوجه الفرقة كلها، وأن هذا يفسر اختلاف الاستجابة للعلاج الكهربائي بعد تحضير كيميائي وتهيئة نفسية مناسبة، ترجح كفة المخ الذي نسلمه القيادة، وأن العلاج النفسى هو الحب الإنسانى الذى يجذب طاقة المريض إلى الخارج إلى الناس ويغرى المخ الحديث بأن يلتقط عصا المايسترو ولا يخاف من الوحدة أو القهر، وأنه بذلك يتوافق العلاج الكيميائى مع العلاج النفسى مع العلاج الكهربائى، وقسمت له الأمخاخ وسميتها، وكان بديهيًا وأنا أعرض كل هذه الأفكار فى خطاب من بضعة صفحات أن أزيد الأمر تعقيدا وليس توضيحا كما قد يجد القارئ نفسه فى متاهة وهو يتابع الفقرة السابقة مما يحتاج إلى اعتذار جديد- وكان بديهيًا ألا أتوقع ردا إيجابيا... وهذا ماحدث- ولكنى على كل حال ختمت الخطاب قائلا:

“والآن: هل نعلن الثورة؟ هل نرفض الأسماء؟ هل آن لنا أن نصمم على التطور بإرادتنا وعلى رفض المقدسات الخادعة، هل نأخذ من كل مخ أصالته وجوهه ونحاول أن نوفق بينها لنحوّل الناس المنشقين على أنفسهم إلى إنسان واحد متوافق مع تاريخه المجيد فى الصراع للبقاء فالتطور. هل تحضر؟ هل تكتب؟ هل نتفاهم؟ هل نستطيع الصمود حتى نموت لا تسرقنا أيامنا ولا أطماعنا قبل أن يفتت عقولنا الكولسترول المترسب داخل شراييننا؟ هل نستمر؟ هل نياس مثل الأنواع المنقرضة من الأحياء؟ هل أنت معي؟ ولك منى الحب والسلام... يحيى

ونكمل الأسبوع القادم

- [1] يحيى الرخاوى (مقدمة فى العلاج الجمعى (1) من نكاه الجماد إلى رحاب المطلق) (الطبعة الأولى 1978)، (والطبعة الثانية 2019) منشورات جمعية الطب النفسى التطورى، والكتاب متاح فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف www.rakhawy.net وهذا هو الرابط.

- [2] نشرة الإنسان والتطور بتاريخ 6-9-2020

- [3] ولعل الأوان قد آن حالا بهذه المحاولة الحالية الممتدة فى سلسلة أمل أن تكتمل.

- [4] يحيى الرخاوى "حيرة طبيب نفسى" (كتبت 1970) دار الغد للثقافة والنشر. الطبعة الأولى 1972، "مستويات الصحة النفسية، من مأزق الحيرة إلى ولادة الفكرة" الطبعة الأولى 2017 منشورات جمعية الطب النفسى التطورى.

- [5] مع قهر العصر الفكتورى

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD130920.pdf>

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيقا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2020 1 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الثامن)

الشبكة تدخل عامها 20 من التأسيس و 18 على الويب

20 عاما من الكبح... 18 عاما من الإنجاز

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

الناس ويغرى المخ الحديث بأن يلتقط عصا المايسترو ولا يخاف من الوحدة أو القهر، وأنه بذلك يتوافق العلاج الكيميائى مع العلاج النفسى مع العلاج الكهربائى

الآن: هل نعلن الثورة؟ هل نرفض الأسماء؟ هل آن لنا أن نصمم على التطور بإرادتنا وعلى رفض المقدسات الخادعة، هل نأخذ من كل مخ أصالته وجوهه ونحاول أن نوفق بينها لنحوّل الناس المنشقين على أنفسهم إلى إنسان واحد متوافق مع تاريخه المجيد فى الصراع للبقاء فالتطور

هل تحضر؟ هل تكتب؟ هل نتفاهم؟ هل نستطيع الصمود حتى نموت لا تسرقنا أيامنا ولا أطماعنا قبل أن يفتت عقولنا الكولسترول المترسب داخل شراييننا؟

هل نستمر؟ هل نياس مثل الأنواع المنقرضة من الأحياء؟ هل أنت معي؟ ولك منى الحب والسلام... يحيى